**بسم الله الرحمن الرحيم**

**البنية المكانيّة في الخطاب الشّعري العربي الحديث**

**أيّها النّيل لأمير الشّعراء أنموذجًا**

**.........**

**ثانيا- البنية المكانية في قصيدة شوقي8:**

أولى ميكانيزمات قراءة المكان في النسيج الشعري لقصيدة أحمد شوقي تخص آلية "التقاطبات المكانية"، والأساس في هذه الآلية هو الكشف عن تأثيث المكان انطلاقا من الثنائيات الضدية، لأنها جزء من عملية إنتاجية المكان، ومن خلال هذه الثنائيات الضدية سيكون هناك حضور للمكان إلا أنه سينوجد في جسد النص وعلى طرائق مخصوصة.

وبهذا تبقى التقاطبات المكانية المفتاح الذي نستطيع بواسطته إثبات وجود الثنائيات الضدية المنتشرة على جسد النص، فضلا عن غاية أخرى يكاشفنا بها النقد حيث أن الغاية من اعتماد الثنائيات الضدية معمارا في النسيج الشعري، هو أن "التقاطب قد جرى استخدامه للوقوف على طبيعة الثنائيات المتضادة التي تنشأ عن طريق توزيع الأمكنة في [النص]"**9**.

تنوعت الثنائيات الضدية من حيث طبيعتها فكانت "من قبيل الداخل / الخارج، الفوق / التحت، الأمام / الوراء"**10** ...وغير هذه الطبيعة كثير، وبتتبع قصيدة الشاعر أحمد شوقي وجدنا فيها توزيع العديد من الأمكنة على مدار أبيات الشوقية، وقد أخذت لها داخل النسيج الشعري وضعية الثنائيات الضدية، وبيان هذا، ما نقرأه عن أول ثنائية وردت في البيت الأول، يقول النص:

مِنْ أيِّ عهد في القُرى تَتدفقُ وبأيِّ كفٍّ في المَدَائنِ تُغْدِقُ**11**

تكشف آلية التقاطب المكاني عن تمأسس البيت الشعري على وحدتي "كف" و"المدائن"، هما في الأصل مكانان تتموضع عليها وفيها الأشياء، يتميز المكان الأول "الكف" بالضيق، في حين المكان الثاني "مدائن" يتميز بكونه مكان واسع. ومنه نقول بني البيت الأول على ثنائية ضدية قائمة على الضيّق والواسع وما يعادلها في الوحدات اللغوية الدالة على المكان الكف والمدائن.

ومما نلاحظه على قصيدة "أيها النيل" أنها تعج بالثنائية الضدية "ضيق/ واسع"، وهو ما نقرأه بشكل منتشر على كل جسد القصيدة، فمع البيت التاسع، نقرأ:

والماءُ تسكُبُه فيُسْبكُ عَسْجَدًا والأرضُ تُغْرقُها فيحيَا المُغْرَقُ**12**

التأسيس تم على ثنائيتي "الأرض" و"المُغْرَق"، فهما يمثلان المكان، ولكن الاختلاف بينهما من حيث الطبيعة فقط، فمكان الأرض يمثل طبيعة الواسع، في حين المكان المغرق فهو يمثل المكان الضيق، وهكذا تنشأ الثنائية الضدية بين "الواسع والضيق" ومنه "الأرض والمغرق" في قصيدة أيها النيل.

يتجاور مع هذه المعمارية تأثيث آخر، مع الإشارة إلى أن هذا الأخير لم يخرج من طبيعة الثنائيات الضدية، إنها ثنائية "المرتفع والمنخفض"، وبيان هذا ما نقرأه في البيت الثاني من قصيدة أحمد شوقي، ومما جاء فيه:

ومِن السّمَاءِ نزلْتَ أم فجِّرْتَ مِنْ عَلْيا الجِنَانِ جَدَاولاً تترقْرَقُ**15**

وفي آخر قصيدة أيها النيل، يختتم أنموذجنا المقارب بثنائية ضدية تخص المرتفع والمنخفض، وهذا في قول النص:

للأرض يوم والسماء قيامة وقيامة الوادي غداة تحلق**16**

تمثل وحدة المكان "الأرض" صفة المكان المنخفض، في حين وحدة المكان السماء فهي تمثل المرتفع، وبهذا تتشكل الثنائية الضدية "منخفض/ مرتفع" وقد ارتسمت وحدته من خلال التركيبة اللغوي الشعرية "الأرض/ السماء".

...

2-**علاقة المكان بالوصف:**

تتحدد علاقة وطيدة بين المكان والوصف، حيث أن المكان يقدم لنا داخل النسيج النصي من خلال آلية الوصف، وتعليل هذا، أن الوصف في طبيعته أساسا، "أسلوب .. يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسي ويقدمها للعين"**21**، وبهذا يتم تقديم المكان، النيل أنموذجا من خلال آلية الوصف.

انطلاقا مما سيق، تتحدد معنا تلك العلاقة البينة بين الوصف والمكان، في قصيدة أيها النيل لأمير لشعراء أحمد شوقي، ومن بين الوصف الذي قدم في النص نذكر وصف ضفتي النيل، هذا الذي يمكننا استجلاؤه بوضوح في هذا المقطع الشعري الذي كاشفنا بمجموع الصفات التي قدمت في وصف المكان، بما هي ضفتي النيل، يقول الشاعر:

و بأيّ نول أنت ناسج بردة للضفتيــــــــن جديــــــدها لا يخلق

تسـود ديباجا إذا فـارقتـها فإذا حضرت اخضوضر الاستبرق

في كل آونة تبدل صبغة عــــجبا و أنت الصابـــــغ المتأنق**22**

يعرض هذا المقطع الشعري إلى وصف ضفتي النيل، ومما ذكره عنها أنك تراها بين حالتين، فهي إما مخضرة الرداء في كل وقت وحين، نيرة، تنبئ عن جدة لا يمسها البلى، تبدل صبغتها بين الفينة والأخرى مما زادها أناقة وجمالا. وإما أن الضفتين تكونان على وصف باهتة، سوداء، مؤذنة بموت محقق، ومنه اللاجمال.

إن تحقق هذا الوصف مع ضفتي النيل مرهون بشرط واحد، ألا وهو حضور النيل أو غيابه، فإذا حضر النيل كان رداء الضفتين على ما قدمنا زاهيا، جديدا، تدب فيه الحياة، ومنه جمال الضفتين. وإذا غاب عن الضفتين النيل، فإنها تتحول إلى موات.

ومن هنا يمكننا القول أن الوصف الذي قدم لضفتي النيل أريد به بيان أهمية النيل، هذه الأهمية التي لا يمكن إبرازها إلا من خلال معطيات حسية النبات، الخضرة، تبدل ألوان بساط الضفتين، ...، إنها الأهمية التي يتمتع بها النيل وتنطبع على من حوله، الضفتين أنموذجا، ففي حضرته تكون الحياة، والجمال، فجمال الضفتين من جمال نهر النيل، وفي غيبته تصير الضفتين إلى موات.

كما تعلق الوصف بتحديد فضائل النيل من خيرات، ونعم، وهو ما نقرأه في هذا البيت الشعري:

تسقي وتطعم لا إنــاؤك ضائق بالوارديـــن ولا خوانك ينفق

أتت الدهُورُ عليك مهدُكَ مترعٌ وحِياضُكَ الشرُقُ الشّهيّة دُفَّقُ

دانو ببحــــــــر بالمكارم زاخر عذب المـشارع مدّهُ لا يلحقُ**24**

من الموصوفات التي تعلقت بالنيل نورد وصفه ببحر المكارم، زاخر المكارم، عذب المشارع، مُدُّه لا يلحق، مهد النيل المترع، حياضه الشهية، إناؤه لا يضيق بما فيه، مائدته لا تنفق. إنه خيرات النيل العميمة تميز بها هذا المجرى المائي الكبير، وهي متدفقة ومنه الغزارة وأيضا لا تنفذ ولا تزول، وقد أخبر عن ذلك الوصف.

**3-علاقة المكان بالشخصيات:**

الأداة الإجرائية الآتية والأخيرة معنا فهي تخص علاقة المكان بالشخصيات، حيث أن هذه العلاقة متمأسسة على زاويا جد هامة، أما الأولى فمتعلقة بالشخصيات وذلك من حيث كون هذه الأخيرة "هي التي تنتج أحداث [النص] فإنها لا يمكنها القيام بذلك إلا ضمن حيز مكاني محدد"**28** . أما الزاوية الثانية فهي حسب أحد النقاد تخص المكان، حيث أن هذا الأخير يعد "الرحم الذي [تنمو] فيه الشخصية"**29**، وأخيرا أن الشخصية تطبع المكان بعناصر كثيرة تحددها أسيقة النص، وهو ما سنستوضحه في هذه الشوقية.

وبالنسبة للشخصيات الواردة في قصيدة أيها النيل نجد عددا معتبرا منها، وهي تخص كلا من: الفرس، العباسيين، الأمويين، الحجاج إلى النيل، بنات فرعون، فرعون، الصحابة، الأنبياء والرسل.

ومن الشخصيات المذكورة في القصيدة نورد الفرس، وبيان هذا:

لا الفرس أوتوا مثله يوما ولا بغداد في ظل الرشيد وجلّقُ**30**

بدأت البيت بذكر الفرس فالعباسيين فالأمويين دون تحديد بل كانت الشخصيات مذكورة في عموم جنسها، والأهم أنه قد تم القرن بين هذه الشخصيات المذكورة وبين النيل مع رسم إشارة في النص إلى أن هؤلاء القوم لا يملكون مثله، ليتحقق بهذا غاية الربط بين المكان والشخصيات، ليكون ذلك مدعاة لرفع قيمة النيل، وذكر علو كعبه أمام باقي الأجناس البشرية التي ذكرت.

فئة أخرى من الشخصيات ذكرت في قصيدة أيها النيل، والدليل هذا البيت:

فُتنت بشطيك العباد فلم يزل قاص يحجهما ودان يرمق**31**

الشخصيات هنا مخصوصة بحجاج النيل، يأتي هؤلاء الحجاج قاصدين النيل، وقد أتوا من بعيد (قاص يحجهما) ومن قريب (دان يحجهما)، وهنا سيكونون بالطبع من خارج مناطق النيل ومن داخل مناطقه، والغاية من هذا القدوم إنما هي لآداء الحج، الذي كان إمعانا نظرا، وقوفا على ضفتي النيل، وإمعان نظر، وتصفيقا عند مرور موكب العروس.